

## نظرة ابن جنّي للغة في ضوء الدرس اللساني

سميح أحمد محمد مقدادي و محمد محمود المقبل

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل  
الأحساء، المملكة العربية السعودية

## الملخص

يعدّ ابن جنّي واحداً من أبرز علماء اللغة العربية المتقدّمين، ظهر هذا الأمر من خلال مؤلفاته التي ضمّت آراء لغويّة على درجة عالية من الأهميّة.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث، للوقوف على هذه الآراء، ومحاولة رسم تصوّر واضح لطبيعة فهم هذا العالم للغة بمعناها الإنساني، مع مناقشة هذا التصوّر، في ضوء ما جاء به الدرس اللساني من أفكار ونظريّات.

وكان من أهم نتائج الدراسة أنّ ما أورده ابن جنّي -على الرغم من تقدم زمنه- من آراء حول اللغة بمعناها الإنساني يعكس تصوّراً وفهماً قريباً جداً مما قدمه اللسانيون المحدثون. وأن الأفكار التي قدمها ابن جنّي حول علاقة اللفظ بالمعنى قد تشكل نظرية متكاملة لو جمعت أشتماتها ونسقت تنسيقاً مناسباً.

الكلمات المفتاحية: الألسنية، تشومسكي، دو سوسير، اللسانيات.

## مقدمة

نصيب الدرس اللغوي العربي يكاد يكون معدوماً. فهذا جورج مونان في كتابه «تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين» يخصص للدرس اللغويّ العربيّ فقرة واحدة، مؤكداً أنّ كل ما قدّمه العرب لا يخرج عن إطار فقه اللغة الذي يسعى إلى تثبيت اللغة الصحيحة على حساب اللهجات<sup>(2)</sup>. من هنا يهدف هذا البحث بشكل عام إلى الكشف عن تصوّر ابن جنّي -كعالم ينتمي إلى الدرس اللغوي العربي- للغة وفهمه لها بمعناها الإنساني، كما فهمها الدرس اللساني بعيداً عن الانتقادات. وسيكون ذلك من خلال ثلاثة محاور هي:-

1. تعريفه للغة.
2. أفكاره حول العلاقة بين اللفظ والمعنى.
3. موقفه من نظريات نشأة اللغة.

وستتم دراسة هذه المحاور الثلاثة ومناقشتها في ضوء الدرس اللساني، عبر الربط بين آراء ابن جنّي التي تمّ استقاؤها من كتابه الخصائص، وآراء اللسانيين عربياً وعجمياً، بقصد الوقوف على نقاط الالتقاء والافتراق بينه وبينهم، والخلوص في النهاية إلى حقيقة المسافة بين الجانبين فيما يخصّ تصوّر اللغة وفهمها، من حيث طبيعتها وخصائصها ونشأتها.

يبدأ البحث بتأكيد أن القصد من مثل هذه الأبحاث ليس المقارنة التفضيليّة بين نظريات الدرس اللساني، وما توصل إليه علماء اللغة العربية الأوائل من معارف في اللغة وعلومها؛ فالمعارف تكتسب من خلال تقدّم العلم وتراكم الخبرات المعرفية وتطوّر وسائل البحث عبر الزمن.

وإنما القصد هو الإشارة إلى قدرة علماء اللغة العربية القدامى على النفاذ إلى دقائق مسائل اللغة، ومقاربة قضاياها من صميم اختصاص الدرس اللساني. ومما لا شكّ فيه أن ابن جنّي من أبرز علماء اللغة في التراث العربي القديم.

لذلك يأتي هذا البحث كحلقة من حلقات الكشف عن كنوز التراث العربي؛ فهذا التراث أهمل عند الغربيين، وليس أدلّ على ذلك من قول مجموعة منهم أنّه لا شكّ في أنّ التراث اللغويّ العربيّ يعدّ واحداً من أهمّ الدراسات اللغويّة الرئيسيّة في العالم، كالتراث الهنديّ واليونانيّ على السواء، على أن الحيّز الضئيل الذي يخصّصه مؤرّخو الدرس اللسانيّ للتراث العربي لا يعكس الأهميّة الحقيقيّة لهذا التراث، فلم يقدره حق قدره<sup>(1)</sup>.

فبالرجوع إلى كتب الغربيين التي أرخت للدرس اللغوي منذ عصور الإنسان الأولى نجد أن

(2) مونان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين،

ص ص 113-114.

(1) بوهاس وجيوم وكولوغلي، التراث اللغوي العربي، ص 22.

## التعريف

قبل ما يربو على الألف عام أَلَّف ابن جني كتابه «الخصائص» الذي ضمَّن فيه تعريفًا للغة جاء على منهج اللسانيين؛ ذلك أنه قصد بتعريفه أن يقدم تصوّرًا ينطبق على اللغة بمعناها الإنساني، فلم يقصد تعريف اللغة العربية على وجه الخصوص، بل عرفها تعريفًا مطلقًا غير مقيد، ينطبق على أي لغة من لغات البشر، قديمها وحديثها؛ إذ قال في باب القول على اللغة وما هي: «وأما حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»<sup>(1)</sup>.

في هذا التعريف لم يقل ابن جني «يعبر بها العرب» بل يعبر بها كل قوم؛ مما يدل على أنه عرف اللغة كظاهرة إنسانية، وبذلك يكون قد وضع تعريفه في دائرة البحث اللساني الحديث، على الرغم من تقدّم زمانه.

فتعريف ابن جني باللغة يثير دهشة الباحثين عن تطوّر الحياة العلمية العربية؛ لأنّه يقترب اقترابًا شديدًا من كثير من تعريفات المحدثين؛ فهو يشتمل على معظم جوانب التعريفات التي عرضها اللسانيون في العصر الحديث<sup>(2)</sup>.

ويرى أحد الباحثين أن ابن جني توصّل إلى هذا التعريف عبر اتصاله باللغة، ولم يستوحه من خارجها، فلم يأخذه عن أرسطو أو عن الفلاسفة عمومًا<sup>(3)</sup>.

أيّد هذا الرأي كثير من لغويي العرب المحدثين؛ إذ يرى محمد داود أنّه من أهمّ التعريفات عند القدماء، فهو يعبر عن حسّ لغويّ مرهف، ودقّة ملاحظة، فقد ضمّ أكبر قدر من الحقائق المهمّة عن اللغة؛ كالطبيعة الصوتية والطبيعة الاجتماعية. فتعريف «اللغة» في الدرس اللساني \_ على تنوع مدارس \_ يلتقي مع تعريف ابن جني لها حول هذه الحقائق المهمّة<sup>(4)</sup>.

أما محمد الرديني فيقول: إن اللغويين العرب تناولوا هذا التعريف دون إضافة تذكّر إليه؛ نظرًا إلى شموله وإحاطته ودقته في بيان المعنى<sup>(5)</sup>. فهو يصلح لأن يكون حلًّا للخلاف بين

الباحثين حول تعريفها؛ لأنّه يوفّق بين أغلب هذه الآراء، ويحدد طبيعة اللغة في إطار مقبول يعكس حقيقة وظيفتها وأبعادها وعناصرها، فضلًا عن أنّه لا يتعدّد كثيرًا عن أحدث التعريفات<sup>(6)</sup>.

ويؤكّد هادي نهر أنّ تعريف ابن جني يقع تحت النظر المنطقي الذي يفترض «وصفًا» مسبقًا أو منطقيًا في كل نظر لغوي<sup>(7)</sup>.

فيما سلف نجد لغويي العرب المحدثين ركزوا في حكمهم على التعريف على مجموعة من الأمور هي:-

أولاً: أنّ ابن جني في تعريفه انطلق من اتصاله المباشر باللغة، فلم يعرفها من خارجها اعتمادًا على علم آخر.

ثانياً: اتفق مع المحدثين في تحديده لكثير من جوانب اللغة، وأهمّها: صوتية اللغة، واجتماعيتها، ووظيفتها، وهو ما سنتبعه في ثنايا بحثنا هذا.

ثالثاً: يعكس التعريف تطور العقلية العلمية عند العرب في ذلك الزمان.

وتعريف ابن جني على قصره وقلة كلماته إلا أنّه تعريف مختزل، كعادة علمائنا المتقدمين في صوغ الحدود، فمذهبهم كان محاولة الإحاطة بالموضوع الذي يضعون له حدًّا بأقل عدد ممكن من الكلمات.

وبالنظر في التعريف نجد أنّ ابن جني بدأه بقوله «أصوات»، مؤكّدًا بذلك الطبيعة الصوتية للغة، وهو أمر نصّ عليه اللسانيون الذين يرون أنّ الصوت اللغوي هو الصورة الحية للغة، واللغة التي لا تنطق لغة ميّنة. ويمثل إدراك علماء العربية المتقدمين وعلى رأسهم ابن جني لهذه الحقيقة دليل حسّهم المرهف وبصرهم باللغة<sup>(8)</sup>.

وقد أكّد فكرة صوتية اللغة ماريو، الذي يرى أنّه على الرغم من تعدد اللغات وتنوعها، فكلها تحمل خصائص مشتركة، أولها وأهمّها أنّ كلّ اللغات تتكون من أصوات تصدرها أعضاء النطق الإنسانية<sup>(9)</sup>.

وقد قال عبده الراجحي تعليقًا على وصف ابن جني للغة بأنّها «أصوات»: إنّنا لا نكاد نجد مثل هذا التحديد لها إلا في العصر الحديث، ويكاد

(1) ابن جني، الخصائص، ص 32/1.

(2) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 60.

(3) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 76.

(4) داود، العربية وعلم اللغة الحديث، ص 43.

(5) الرديني، فصول في علم اللغة العام، ص 16.

(6) الرديني، فصول في علم اللغة العام، ص 15.

(7) نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص ص 53-54.

(8) داود، العربية وعلم اللغة الحديث، ص 45.

(9) باي، أسس علم اللغة، ص 40.

تتحقق بالأصوات لكنها ليست هي، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين الشيفرة والأجهزة المبرقة، فالأجهزة نفسها لا تشكل جزءاً من نظام الشيفرة، الإشارة اللغوية كما يراها سوسير حقيقة ذهنية وليست مادية<sup>(6)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الذين تبنا هذه الفكرة القائلة بأن اللغة ليست أصواتاً، وإنما هي نظام من الإشارات ذهني مجرد لا وجود له في العالم المادي، وأن الأصوات باديها لا تعدو أن تكون وسيطاً لنقل اللغة يسمى الكلام، مفرّقين بين اللغة والكلام، قالوا ذلك متأثرين بدي سوسير، الذي عرّف اللغة على أنها نظام من الدلائل يعبرّ عما للإنسان من أفكار<sup>(7)</sup>، وهو القائل في كتابه «دروس في الألسنية العامة»: «وقد يعترض معترض على هذا الفصل بين التصويت واللغة مستنداً بأن التغيرات الصوتية واعتلال الأصوات وإن كانا من نصيب اللفظ فإنهما يحدثان مع ذلك تأثيراً بعيد المدى في مصير اللغة نفسها؛ فترى هل يحق لنا أن نزع أن اللغة وجوداً مستقلاً عن هذه الظواهر الصوتية؟ الجواب عن هذا السؤال يكون بنعم»<sup>(8)</sup>.

لكنّ مزيداً من التفكير في تعريف ابن جنّي ومقارنته بما جاء به (دي سوسير) تجعلنا نظن أن الذين عدوا ابن جنّي مخطئاً في وصفه للغة بأنها «أصوات» قد فهموا كلام ابن جنّي فهماً حرفياً؛ فمن المؤكّد أن ابن جنّي لم يعن أن هذه الأصوات تستخدم بلا نظام، وإلا لكانت ضوضاء لا تؤدّي معنى، ولا تقدم فائدة. وهو الذي ينتمي بشكل ما إلى مدرسة البصرة التي أدركت حقيقة مهمّة، وهي أن اللغة نظام، بمعنى أنّه يجب احتواء ما يمكن احتواؤه من كلام العرب ضمن النظام اللغوي، واعتبار ما يقع خارج تلك الحدود شاذاً يحفظ، ولا يقاس عليه<sup>(9)</sup>.

فاللغة في صورتها الخارجية نظام معيّن من الأصوات تعارفت عليها الجماعة اللغوية المعينة، وهذه الأصوات التي عناها ابن جنّي هي ما عناه

الباحثون اللغويون يجمعون على أن اللغة أصوات، على اختلاف بينهم في التعبير عن هذه الكلمة<sup>(1)</sup>. وفي عودة لفكرة الحدود عند علماء العربية، فإنّ من أهم ما يهدف إليه الحدّ عندهم هو إخراج ما ليس من الموضوع منه، وبذلك يكون ابن جنّي في قَصْرِهِ اللغة على الأصوات، قد أخرج الكتابة من التعريف. وقد أشار محمود حجازي إلى هذا الأمر في معرض حديثه عن تعريف ابن جنّي، إذ يقول: «ويؤكد أن اللغة أصوات، وهو بهذا يستبعد الخطأ الشائع الذي يتوهم أن اللغة في جوهرها ظاهرة مكتوبة»<sup>(2)</sup>.

ويؤكد عبده الراجحي أن قَصْرَ ابن جنّي اللغة على الأصوات، دليل واضح على أن علماء العربية لم يكونوا يدرسون اللغة باعتبارها لغة مكتوبة، شأن أصحاب الدرس اللساني<sup>(3)</sup>.

ولكنّ في مقابل ما تقدم، نجد من المحدثين من عاب على ابن جنّي تعريفه للغة بأنها أصوات، ومن هؤلاء تمام حسان الذي يرى أن ابن جنّي لم يعرّف اللغة وإنما عرّف الكلام<sup>(4)</sup>.

واتفق معه في ذلك فوزي الشايب، فقال: إنّ اللغة تعرّف بأنها نظام اتصال يتكون من صوت ومعنى فقط، ولكن ينبغي أن نوضح هنا أن الصوت والمعنى ليسا هما اللغة حقيقة، إذ هما مجرد مظاهر خارجية للغة قابلة للملاحظة، بينما اللغة هي الارتباط الحاصل بينهما، وبذلك يكون ابن جنّي خانه التوفيق عندما عرّف اللغة بأنها أصوات، فهو لم يعرف اللغة وإنما عرّف الكلام الذي هو المظهر الخارجي والتجسيد المادي للغة، لا اللغة في حدّ ذاتها، اللغة ليست كلاماً. فالكلام هو مجرد الوسط الذي تنتقل من خلاله اللغة، والنظام اللغوي مستقل عن الوسيلة التي يتحقّق بها، فاللغة تبقى لغة سواء أظهرت كلاماً أم كتابة، إن المرء لا يستطيع الكلام دون استخدام اللغة، غير أنّه من الممكن أن يستخدم اللغة دون أن يتكلّم، لذا فالصوت ليس جزءاً من أيّ لغة معينة<sup>(5)</sup>.

ويذهب سعد الصويان المذهب نفسه فاللغة

(1) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 60.

(2) حجازي، مدخل إلى علم اللغة، ص 10.

(3) انظر: حسنين، علم اللغة الوصفي التاريخي، ص 9. والماحي، مدخل إلى علم اللغة العام، ص 22. والراجحي، في علم اللغة عند العرب ورأي علم اللغة الحديث، ص 9.

(4) حسان، مناهج البحث في اللغة، ص 64.

(5) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص 18.

(6) الصويان، اللغة الإنسانية طبيعتها وخصائصها، ص 80.

(7) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص 37.

(8) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص 40.

(9) حافظ، قراءة في فكر ابن جنّي من خلال «الخصائص»

على ضوء علم اللغة الحديث، ص 81.

ثالثاً: مصطفى غلفان: نظام من الأصوات يتوصل بها أفراد مجتمع للتعبير عن حاجاتهم المادية والمعنوية<sup>(5)</sup>.

ولا نقصد هنا التقليل من قيمة آراء دي سوسير، فهو كما يوصف أبو الدرس اللساني الحديث، وكل ما أردنا قوله هو أن ابن جني لم يكن يغرد خارج السرب إذا ما قورن باللسانيين المحدثين في وصفه للغة بأنها أصوات.

وبعد وصف ابن جني للغة بأنها أصوات، قال «يعبر بها» وهو بذلك يحدد وظيفة اللغة، فوظيفة اللغة هي «التعبير» أو باصطلاح علماء اللغة المحدثين «التواصل»<sup>(6)</sup>. وقد اقترنت حياة اللغة بعملية التواصل؛ فاللغة التي لا تواصل بها ليس لها وجود. ويوشك أن يكون كل واحد منا على علم بأن حياة لغة ما يعني بقاءها مستقرة في دائرة التواصل والتداول، وأن فناءها وزوالها يعني شيئاً واحداً، هو خروجها من دائرة التواصل<sup>(7)</sup>.

عبر عن هذه الفكرة (جان بيرو) في قوله: «اللغة كمؤسسة اجتماعية تعرف تطوراً مشروطاً بالمجموعة التي تتكلمها؛ فتمو وتراجع لغة ما لا معنى لها إلا بالنظر إلى استعمال هذه اللغة من طرف الناس. واللغة تموت إذا لم يستعملها أحد»<sup>(8)</sup>.

وقد اتفق مع ابن جني أصحاب المدرسة اللسانية الجديدة؛ إذ يرون أن «اللغة في جوهرها هي التعبير عن إحساس جمالي، وهذا الإحساس قابل للتنوع»<sup>(9)</sup>.

ويرى (هوبز) أن اللغة لها وظيفتان: ليس الاتصال فحسب، بل التفكير أيضاً، وتجعل اللغة في استطاعتنا أن نسجل ما نجد بالتأمل أنه فائدة شيء ما، وليس الفهم إلا الإدراك الذي يترتب على الأسماء العامة المتفق عليها للإشارة إلى أفكارنا، والدلالة عليها، ومن ثم لا يكون للأطفال عقل بتاتاً إلا حين يكتسبون استعمال الكلام<sup>(10)</sup> وعلاقة اللغة بالتفكير أمر نسط القول فيه في موضع لاحق. ويرى (لوك): «أن الحاجة إلى الاتصال هي

(5) غلفان، في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها، ص 11.

(6) الماخي، مدخل إلى علم اللغة العام، ص 26.

(7) استيتية، اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، ص 675.

(8) بيرو، جان، اللسانيات، ص 127.

(9) إفيش، اتجاهات البحث اللساني، ص 153.

(10) لويس، اللغة في المجتمع، ص 114.

المحدثون في تعريفهم للغة بأنها نظام من الرموز<sup>(1)</sup>. واللغويون المحدثون يعالجون هذا الجانب من تعريف اللغة معالجة حديثة، لكنها لا تتعد كثيراً عما قرره ابن جني من أنها أصوات؛ لأن اللغة سواء أكانت «نظاماً من الرموز الصوتية» أو نظاماً من العلاقات الصوتية، أو جزءاً من العلامات «السيمولوجية» على ما يذهب إليه دي سوسير، فإن المهم أنها تدرس باعتبارها «أصواتاً» وليست باعتبارها حروفاً مكتوبة<sup>(2)</sup>.

فاستخدام ابن جني لكلمة «أصوات» هو في رأينا أمر لا بد منه لأي شخص يعرف اللغة؛ لأن قَصْر تعريف اللغة على كونها «نظاماً من الرموز» دون الإشارة إلى جانبها الصوتي لا يعدّ أمراً مساعداً في فصل اللغة عن غيرها من الأنظمة الإشارية التي تعدّ اللغة واحدة منها، وتندرج كلها تحت علم «السيمولوجيا». فلغة الإشارة مثلاً التي يستعملها الصمّ للتواصل لا تخرج عن كونها نظاماً من العلامات والرموز، والفرق بينها وبين اللغة يتوقف على أنها تستعمل الحركات والإيماءات بدلاً من الأصوات، وهذا أمر ينطبق على منظومة كبيرة لا يستهان بها من الإيماءات التي يستخدمها الإنسان يومياً، ولا تخرج عن إطار التعبير والتواصل؛ لأنها ترسل رسائل إلى الطرف الآخر، أصبحت معروفة ومقروءة عرفاً، ومع ذلك لا نستطيع أن ندرجها في إطار اللغة التي هي موضع دراسة الدرس اللساني، ومن هنا نجد أن العيب الذي وجّه لابن جني في ذكره للأصوات بأنه عرّف الكلام، والكلام شيء مغاير للغة، عيب يحتاج إلى مزيد من التفكير؛ ولا سيما أن الساحة اللغوية في العصر الحديث أفرزت الكثير من العلماء الذين اختلفوا مع (دي سوسير) في بعض آرائه، وعرّفوا اللغة مؤكدين طبيعتها الصوتية، ومنهم:-

أولاً: (جان بيرو): إن «المعنى الضيق والدقيق للغة يقوم على الجمع بين مضامين فكر، وبين أصوات ناتجة عن طريق الكلام»<sup>(3)</sup>.

ثانياً: (بلوخ وتراجر): «اللغة نظام اجتماعي من الرموز المنطوقة الاعتبارية تتعاون به مجموعة اجتماعية»<sup>(4)</sup>.

(1) الرديني، فصول في علم اللغة العام، ص 15-16.

(2) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 61-62.

(3) بيرو، اللسانيات، ص 1.

(4) ليونز، اللغة وعلم اللغة، ص 5.

منبع اللغة»<sup>(1)</sup>.

بينما يقول (مالينوفسكي): إن وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم والتواصل، بل هي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، فهي جزء من السلوك الإنساني<sup>(2)</sup>. وهو بذلك يؤكد الدور النفسي للغة في حياة الإنسان. في حين أن (ستاوت) بعد أن يسأل عن الوظيفة الخاصة باللغة يجيب فيقول: «والجواب أن للغة وظيفة يفضل هو أن يسميها «تعبيرية» فالكلمة أداة التفكير في المعنى الذي تعبر عنه»<sup>(3)</sup>. وبذلك نجد أن كثيرًا من علماء اللغة المحدثين يتفقون مع ابن جنبي في تحديدهم لوظيفة اللغة بكونها التعبير والتواصل.

أما موضوع علاقة اللغة بالمجتمع، وهو أمر يشكل مركز اهتمامنا عند محاولة فهم قول ابن جنبي «كل قوم»، فما مفهوم كلمة «قوم» عند ابن جنبي؟

من الواضح أن كلمة «قوم» تعني «المجتمع» وبخاصة أن لفظ «المجتمع» لم يكن مستعملاً في هذا المعنى الذي تعنيه الآن، وإنما كان العرب يستعملون «القوم» للدلالة على «المجتمع» كما نفهمه في العصر الحديث<sup>(4)</sup>.

فإشارة ابن جنبي هذه زيادة على أنها تحدد اتجاهًا علميًا أقرب إلى الواقع اللغوي، ويؤثر في منهج ابن جنبي في تناول الظواهر اللغوية على مستوياتها المختلفة، فإن أي متوسم بالاهتمام بالدرس اللغوي يقف على أهمية مقولة ابن جنبي في مثل هذا المقام، لأنها تدل على أن علماء العربية لحظوا ملحظًا ضروريًا، وفهموا قانونًا أساسيًا من قوانين حياة اللغة، ونعني به أن اللغة في جوهرها شكل من أشكال السلوك الاجتماعي؛ ذلك أنها لا تكون إلا حيث يكون المجتمع، ومن ثم يمكن فهمها بوصفها ظاهرة اجتماعية، مع ما يمكن أن يترتب على ذلك من منهج<sup>(5)</sup>.

ومن أهم اللسانيين الذين نصّوا على اجتماعية اللغة (دي سوسير) بقوله: «إن اللغة مؤسسة اجتماعية تتميز عن سواها من المؤسسات السياسية

والقانونية»<sup>(6)</sup>.

وعلى الرغم من اتفاق المحدثين على العلاقة الحتمية بين اللغة والمجتمع، إلا أنهم اختلفوا حول طبيعة هذه العلاقة.

ف(فندريس) مثلاً يرى أن اللغة بنت المجتمع ونتاج من نتاجاته؛ إذ يقول: «في أحضان المجتمع تكونت اللغة، ووجدت اللغة يوم أحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم.. فاللغة وهي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، وصارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات، وقد دانت بنشوتها إلى وجود احتشاد اجتماعي»<sup>(7)</sup>.

وفي الاتجاه نفسه «يرى (أنطوان ماييه) أن اللغة ليست ظاهرة بسيطة؛ إذ إنها بنية مركبة من طبقات «أساليب» مختلفة، تكتسب شكلها من بيئة اجتماعية معينة (لغة التجار والصناع... إلخ)»<sup>(8)</sup>. وقد عبّر عن شيء قريب من هذا عبدالواحد وافي، إذ يرى أنه مما لا شك فيه أن اللغة ظاهرة اجتماعية، تنشأ كما ينشأ غيرها من الظواهر الاجتماعية، فتخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبثق عن الحياة الجمعية وما تقتضيه هذه الحياة من شؤون<sup>(9)</sup>. وهو بذلك يتفق مع (فندريس) في أن اللغة بنت المجتمع.

أما (روي هجمان) فقد أعطى للغة أهمية اجتماعية أكبر، فلا يوجد نشاط اجتماعي بلا لغة، لأنها المحرك لأي نشاط، وكأنه يريد أن يقول إن اللغة قلب المجتمع الذي لا حياة ولا حركة له بدونها، إذ يقول: «غالبًا ما يقال إن الحياة الاجتماعية كما نعرفها لا يمكن تصورها بدون لغة، وعادة ما تؤخذ هذه المقولة لكي تعبر عن الشيء الملاحظ وهو أن العبارات اللغوية المنقوطة تشكل العنصر الأساسي في القدر الأكبر من التفاعلات الإنسانية الاجتماعية، وأن جميع أشكال التواصل غير الكلام تقوم بدور ثانوي، بالمقارنة بدور الكلام. إن الحياة الإنسانية الاجتماعية تقوم أساسًا على المعرفة المشتركة - الحضارة - وإن اللغة هي الوسيلة الرئيسية التي يمكن أن تتم المشاركة

(1) لويس، اللغة في المجتمع، ص 114.

(2) سامسون، مدارس اللسانيات السابق والتطور، ص 238.

(3) لويس، اللغة في المجتمع، ص 117.

(4) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 71.

(5) نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص 54.

(6) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص 37.

(7) فندريس، اللغة، ص 35.

(8) إفيش، اتجاهات البحث اللساني، ص ص 132-133.

(9) وافي، علم اللغة، ص 96.

والحقيقة أن (دي سوسير) سبق (سابير) في وصف اللغة بأنها مكتسبة وأنها تواضع<sup>(6)</sup>. وأكد الفكرة نفسها العالم السلوكي (سكنر)<sup>(7)</sup>، و(روي هجمان)<sup>(8)</sup>.

وعلى الرغم من أن كثيراً من علماء الغرب ذهبوا إلى أن اللغة مكتسبة إلا أن هذه القضية تبقى موضع خلاف بينهم، ف(نعوم تشومسكي) مثلاً يرى أن اللغة غريزية وليست مكتسبة، إذ يعرف اللغة على أنها ملكة فطرية عند المتكلمين بلغة ما لتكوين وفهم جمل نحوية<sup>(9)</sup>.

أما قضية تأكيد أو نفي وعي ابن جني بهذا الجانب من جوانب اللغة وترجيحه لكونها مكتسبة وليست فطرية فهو أمر يحتاج إلى بحث مستقل، فالاعتماد على ما اعتمد عليه عبده الراجحي في التعريف لا يقوم دليلاً كافياً على صحة ما ذهب إليه، كما أن النقل الذي يورده هادي نهر ليس فيه تصريح بالأمر، ولذلك تبقى هذه المسألة محتاجة إلى الاستقراء والدراسة قبل إطلاق الحكم عليها.

وربما يساعد في إثباته القاعدة القياسية المشهورة التي يقول فيها ابن جني إن «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب» وهو اسم باب من أبواب كتابه «الخصائص»، فضلاً عن تعريف ابن جني لعلم النحو على أنه «اتباع سمت كلام العرب..»، لما في هذا التعريف وتلك القاعدة من إشارة واضحة إلى أن اللغة تؤخذ اكتساباً وليست فطرة، والله تعالى أعلم.

لم يتبق لنا في تحليلنا لتعريف ابن جني إلا قوله «عن أغراضهم» وهو ذات التعبير الذي استخدمه (روي هجمان) في تعريفه للغة حين قال: «وتعتبر أي لغة مجموعة كبيرة من التقنيات المعقدة التي يمكن تجميع أجزائها ثم إعادة تجميعها في عدد لا نهائي من الطرق لإنتاج عبارات من أجل التعبير عن عدد لا حصر له من الأغراض»<sup>(10)</sup>. فما المقصود من «الأغراض» في هذا الموضع؟ يرى عبدالنور الماحي أن هذه الكلمة في تعريف

في المعرفة وفقها<sup>(1)</sup>.

بينما رأى اللغويون الروس أن اللغة تعكس الواقع الاجتماعي بمختلف معطياته بعدها الأحداث اللغوية مؤشرات دالة على الظواهر الاجتماعية نفسها<sup>(2)</sup>، فاللغة مرآة تمكننا من رؤية المجتمع والتعرف إلى ظواهره.

من ثم كان ابن جني على صواب عندما ضمّن تعريفه للغة إشارة إلى اجتماعيتها، فقد أدرك أنه لا لغة بلا مجتمع ولا مجتمع بلا لغة، وأن حياة اللغة ترتبط باستمرار استخدام أهلها لها كوسيلة في تسيير نشاطاتهم الاجتماعية.

وقد رأى بعض المحدثين من لغويي العرب أن إشارة ابن جني إلى المجتمع في تعريفه للغة أمر أبعد من مجرد تأكيد جانبها الاجتماعي، بل إن هذه الإشارة تؤدّي بنا إلى فكرة أساسية أخرى في فهم اللغة، ذلك أن حصر وجودها داخل «مجتمع» دليل على أنه كان يعتقد بأنها «مكتسبة»، وليست «غريزية» وهو ما عبّر عنه (سابير) في تعريفه للغة عندما قال: «اللغة طريقة إنسانية بحثة غير غريزية لتواصل الأفكار والانفعالات بواسطة الرموز المنتجة إنتاجاً إرادياً»<sup>(3)</sup>.

وقد اعتمد هادي نهر على موضع آخر من «الخصائص» غير التعريف في تأكيد هذه الفكرة، فيقول: «يرى (سابير) أن اللغة ظاهرة مكتسبة وليست غريزية، وقد وعى علماءنا هذه الحقيقة من قبل (سابير) بمئات السنين، حيث تحدّثوا عن السليقة اللغوية، قاصدين بها اكتساب المرء لغة المجتمع الذي يعيش فيه، فكان ابن جني يرى أن «العرب وإن كانوا منتشرين وخلقاً عظيماً في أرض الله غير متحجرين، ولا متضاغطين، فإنهم بتجاوزهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مهمّ أمره. فهذا هذا»<sup>(4)</sup>. وبهذه المراعاة والملاحظة يتم اكتساب اللغة ورصد ما يعرض لها من الاختلال والفساد والخلط<sup>(5)</sup>.

(6) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص 29-30.

(7) كلاس، الألسنية لغة الطفل العربي، ص 35.

(8) هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص 105.

(9) تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، ص 36.

سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، ص 74.

وبارتشت، مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، ص 287.

(10) هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص 158.

(1) هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص 177.

(2) غلفان، في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها، ص 46.

(3) ليونز، اللغة وعلم اللغة، ص 4.

(4) ابن جني، الخصائص، 2/1516.

(5) نهر، اللسانيات الاجتماعية عند العرب، ص ص 61-62.

ويتفق (روي هجمان) مع هذا المذهب، مؤكداً أن اللغة مصممة لتؤدي وظيفة توجيه التفكير<sup>(7)</sup>. في حين يرى آخرون أن اللغة هي أم الفكر، وأنه لا فكر بلا لغة، يقول لوك: «تحدد عملية التفكير المجرد بمقتضيات الحاجة إلى الاتصال، وبأهمية اللغة التي تعد أم التفكير»<sup>(8)</sup>. و(ستودارت) و(هورن توك) يريان أن ما يسمى عمليات العقل ليس إلا عمل اللغة، وكذلك يقول (كونديلاك): «إن المرء لا يفكر دون عون اللغة»<sup>(9)</sup>.

أما (ساير) و(ورف) فقد كانا يؤكدان الفكرة السابقة التي ترى أن اللغة هي أم التفكير، وأنه لا تفكير دون لغة، وذهباً أبعد من ذلك عندما اعتقدا أنه لو وجدت وسيلة للتحكم باللغة التي يتعلمها الناس، فإنه من الممكن التحكم في أسلوب تفكيرهم. لكنهما انقلبا على هذا الرأي فيما بعد من خلال تأكيد أن الأفكار هي التي تشكل وتحدد اللغة لا العكس، وذلك باستثناء المسائل المجردة من الفكر، فصياغة الأفكار عملية مستقلة عن اللغة إلى حد بعيد<sup>(10)</sup>.

ونختم هذا التحليل بقولنا: إن ابن جني قد قدم فهماً عميقاً لحقيقة اللغة بمعناها الإنساني، فهم يقارب الفهم الذي قدمه الدرس اللساني الحديث، مما يدل على تقدم الدرس اللغوي العربي في ذلك الزمان؛ إذ استطاع أن يلامس بعضاً مما توصل إليه المحدثون، بعد أكثر من ألف عام.

### اللفظ والمعنى

يعد هذا الموضوع شديد الارتباط بسابقه، بل هو منه وتكملة له؛ ذلك أن من أهم خصائص اللغة عند اللسانيين المحدثين هي اعتبارية اللغة، ومعناها أننا لا نملك وسائل محددة تساعدنا على التنبؤ بما تعنيه كلمة معينة بمجرد سماعها. وقد صيغ مصطلح الاعتباطية في الفرنسية من (Arbitvel) التي تعني الحاكم المستبد أو السيد المطلق، وفي العربية من لفظ «اعتبط» ومعناها القتل ظلماً، أو ذبح الذبيحة سميئة فتية لا علة فيها. وبهذا يلتقي المصطلحان عند فكرة الظلم أو

ابن جني تشير إلى علاقة اللغة بالتفكير، فهي الاصطلاح الحديث المقابل للأغراض، مؤكداً أن علاقة اللغة بالتفكير هي من أشد مباحث الدرس اللساني تعقيداً وأكثرها طرفاً في آن معاً<sup>(1)</sup>.

وبعد تأكيد عبده الراجحي الفكرة السابقة، يضيف إليها أن ابن جني كان أكثر توفيقاً في استعمال لفظة «أغراض» من استعمال المحدثين للفظ «التفكير»؛ لأن الأخيرة حادة قاطعة، قد يقتصر معناها على الصورة الذهنية العقلية، أو العمليات الذهنية<sup>(2)</sup>.

وربما يكون (وللم فون همبولت) (1767-1835) من أقدم اللغويين المحدثين في إشارته إلى العلاقة بين اللغة والتفكير، فغلة الشعب المعين وتفكيره يتعذر الفصل بينهما؛ لأن لغة الناس هي روحهم، وروحهم هي لغتهم. غير أن اللغات ليست كلها سواء؛ بعضها يظهر تقدماً أكثر من غيره بوصفها أدوات وصوراً للتفكير<sup>(3)</sup>.

و(همبولت) ينظر إلى اللغة والتفكير على أنهما وجهان لعملة واحدة، ومن ثم لا يمكن الفصل بينهما، بينما يعتقد غيره أن لغة المجتمع وتفكير أعضائه يؤثر كل منهما في الآخر<sup>(4)</sup>.

### فما حقيقة علاقة التفكير باللغة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر السهل، إذ لم يتوصل العلماء حتى الوقت الراهن إلى نقطة اتفاق حول العلاقة بينهما.

شكل الرأي الذي سلف ل(همبولت) نقطة انطلاق بالنسبة إلى كثير من العلماء الذين أيدوا فكرته وأضافوا إليها. فيعتقد (كارل فوسلر) «أن اللغة لها الارتباط الأوثق والمباشر بعقلية الشعب؛ فاللغة هي أداة الروح، وهي الظاهرة المادية التي يمنح المرء من خلالها المظهر المنطوق لأفكاره ومشاعره الخاصة»<sup>(5)</sup>.

ويؤكد (فايسجربر) في هذا السياق أن اختلاف اللغات ليس اختلافاً في الأصوات، بل اختلاف في رؤى العالم ذاته<sup>(6)</sup>.

(1) الماحي، مدخل إلى علم اللغة العام، ص ص 28-29.

(2) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص ص 73-74.

(3) روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ص ص 286-287.

(4) سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، ص 87.

(5) إفتيش، اتجاهات البحث اللساني، ص ص 144-145.

(6) هلبش، تاريخ علم اللغة الحديث، ص ص 223-224.

(7) هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص ص 144.

(8) لويس، اللغة في المجتمع، ص 115.

(9) السابق، ص 115.

(10) همدسون، علم اللغة الاجتماعي، ص 165.

المعاني، وإنَّما الأمر مجرد اختيار عشوائي لا يستند إلى أي منطق.

وهذا الأمر يضع فرقاً بين اللغة الطبيعية والرموز، كإشارة الصليب التي تدل على صلب المسيح عند النصارى<sup>(5)</sup>. ففي اللغة لا قيود تحدّد اختيار «دال» ما لـ «مدلول» معين، في حين أنه لا يصلح الأرنب لأن يكون رمزاً للقوة، ولا السيف لأن يكون رمزاً للسلم.

وإشكالية العلاقة بين اللفظ والمعنى قديمة حديثة، كما أنّ لها أوجهاً مختلفة، بعضها يتخذ طابعاً لغوياً خالصاً، وبعضها الآخر يجد مكانه في النقد ودراسة الأدب.. إلخ. وقد كان لابن جني في هذه المسألة جولات ووصولات وأثار وأفكار، قد ترتقي لوجعته ونسقت إلى مستوى النظرية بمفهومها الحديث. وعلى الرغم من تنوع الأفكار التي بثها ابن جني في «خصائصه» حول هذه العلاقة، فإن غالبية الدارسين يذهبون إلى حصر نظرته وتصوره داخل دائرة واحدة<sup>(6)</sup>، تتمثل في أنه يعتقد أنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة طبيعية. والواقع أنّ هذا المذهب يشكل جزءاً من الحقيقة، وليس الحقيقة كلها، فهو مع تأكيد هذه العلاقة الطبيعية في أكثر من باب من أبواب «خصائصه» كما سنبين، إلاّ أنّه لم يكن يعني أنّ كل ألفاظ اللغة من هذا القبيل، بل إنّ استرعى انتباهه وجود مثل هذه العلاقة بين بعض الألفاظ ومعانيها، فركّز عليه كظاهرة. وما سيقوم به البحث في هذا الموضوع هو استعراض ما أمكن من أفكار ابن جني حول هذه العلاقة.

**الفكرة الأولى:** يرى ابن جني في باب يعقده تحت اسم (تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني)<sup>(7)</sup> أنّ بعض المعاني تلتقي وتتفق على الرغم من أنّ ألفاظها مختلفة في الأصل - وهو الجذر - والمبنى - وهو الصيغة - ويمثل على ذلك بأمثلة كثيرة نذكر منها «الذهب»؛ لأنّ ما فيه من التراب كالمستهلك له، أو لأنّه قل في أيدي الناس فصار كأنّه مفقود ذاهب؛ ولذلك سموه «التبر» من «التبار»، ولا يقال له «تبر» حتى يكون في

التعسف<sup>(1)</sup>.

وقد أطلق المحدثون على الصورة الأكوستيكية للصوت مصطلح «الدال»، وعلى الصورة الذهنية للمسمى مصطلح «المدلول». وكان (دي سوسير) أوّل من أشار إلى ذلك، مؤكداً أنّ الرابط بين الدال والمدلول هو رابط اعتباطي، وأنّ نظام اللغة الكلّي يبنى على المبدأ اللاعقلاني بمعنى اعتباطية العلامة<sup>(2)</sup>.

فما «الدال» و«المدلول» عند (دي سوسير)؟ وما المقصود باعتباطية العلاقة بينهما؟

«الدال» و«المدلول» عند (دي سوسير) هما مفهومان يتألف منهما الدليل اللغوي، وهو مصطلح يستعمل للدلالة على المجموع وتعويض المتصور الذهني بـ *signifie* أي (مدلول)، والصورة الأكوستيكية بـ *significant* أي (دال)<sup>(3)</sup>.

وإصرار (دي سوسير) على نفسية الدليل اللغوي بجزيئه «الدال» و«المدلول» هي من الأمور التي لن نجدها عند ابن جني في حديثه عن اللفظ والمعنى، وهما المصطلحان التقليديان اللذان كانا سائدين قبل استبدال «الدال» و«المدلول» بهما من قبل (دي سوسير) عند الغرب.

أمّا بالنسبة إلى الاعتباطية عند (دي سوسير) فقد قال: «إنّ الرابط الذي يجمع بين «الدال» و«المدلول» رابط اعتباطي، أو بعبارة أخرى، وبما أننا نعني بكلمة دليل المجموع الناتج عن الجمع بين «الدال» و«المدلول»، يمكننا أن نقول بصورة أبسط إنّ الدليل اللغوي اعتباطي. وهكذا فالتصور الذهني «أخت» لا تربطه أية علاقة داخلية بتتابع الأصوات التالية: الهمزة والضمّة والحاء والتاء والتنوين الذي يقوم له دالاً، ومن الممكن أن تمثله أية مجموعة أخرى من الأصوات، ويؤيد ذلك ما يوجد بين اللغات من فوارق في تسمية الأشياء، بل واختلاف اللغات نفسه، فالمدلول (بقرة) داله بقرة (الباء والفتحة..) في العربية و(boeuf) بالفرنسية و(oehs) (أو كس) بالألمانية<sup>(4)</sup>.

وبالتالي فلا وجود لعلاقة حتمية أو سببية تدعونا إلى إطلاق لفظ ما للدلالة على أحد

(5) علي، مدخل إلى اللسانيات، ص 28.

(6) من هؤلاء: حماد، العلاقة بين الصوت والمعنى عند ابن جني، ص 308. الصويان، اللغة الإنسانية طبيعتها وخصائصها، ص 95.

(7) ابن جني، الخصائص، ص 113/2.

(1) حافظ، قراءة في فكر ابن جني من خلال «الخصائص» على ضوء علم اللغة الحديث، ص 75.

(2) ياكسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ص 30.

(3) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص 110.

(4) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص ص 111-112.

تراب معدنه<sup>(1)</sup>.

ومقصود ابن جنبي في هذا الباب أن إطلاق التسمية على الشيء يعتمد على سمة بارزة فيه، فإذا تعددت السمات تعددت الألفاظ بأصولها ومبانيها، وهي في النهاية تدل على شيء واحد على اختلاف أوضاعه وصفاته، وهي فكرة قريبة من فكرة «الترادف» إذا لم تكن هي، و«الترادف» أمر موجود في كل اللغات لا ينكره منكر، على اختلاف في زاوية النظر إليه في جانب التطابق أو التقارب. وابن جنبي في هذا الباب لم يقل باطراد هذه الظاهرة لتشمل ألفاظ اللغة كلها، وإنما هي ظاهرة تكررت في مواضع متعددة، فأراد أن يسלט الضوء عليها.

**الفكرة الثانية:** في الباب الذي يليه من «الخصائص» يتكلم ابن جنبي عن فكرة أخرى تحت اسم «باب في الاشتقاق الأكبر»<sup>(2)</sup>، وهو ما اصطلح على تسميته لاحقاً بـ«الاشتقاق الكبير». فكرة هذا الباب هي أن الجذور التي تتفق في الأصول نفسها رغم اختلاف ترتيب هذه الأصول، يمكن ردها إلى أصل معنوي واحد، مثل تقلبيات الأصل (كتب، كبت، بكت، بتك، تكب، تبك) فكل هذه الجذور يمكن تتبع معانيها لنجد فيها معنى: القوة والشدة.

ابن جنبي يسبق الدارسين إلى الحكم على فكرته هذه بأنها مذهب عويص<sup>(3)</sup>، معلناً عدم ادعائه بأن هذا المذهب مطرد يمكن تطبيقه على جميع اللغة؛ فهو بالنسبة إليه فكرة أو ظاهرة قدّم لها تصوراً ودراسة كما هو ديدن البحث العلمي الحديث عندما يحاول تسليط الضوء على ظاهرة لغوية معينة.

**الفكرة الثالثة:** نجد هذه الفكرة في باب آخر من أبواب «الخصائص» هو باب «تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني»<sup>(4)</sup>. يوضح ابن جنبي في هذا الباب ظاهرة لغوية مهمة، ولكنها مقصورة على ألفاظ محدودة، ولا تشكل قاعدة عامة، تتمثل في أن تقارب حروف وأصوات الألفاظ قد يكون سببه تقارب المعاني، فيذهب إلى أن مجرد الاشتراك في بعض الحروف يكفي أحياناً للاشتراك في الدلالة.

«فالهزّ والأزّ» متقاربان في المعنى، وهما أيضاً متقاربان في اللفظ، إذ الهاء أخت الهمزة، فتقارب اللفظين حصل بسبب تقارب المعنيين. ومعنى التقارب في هذا الباب واسع، وله صور متعددة، كالاشتراك في عدد من الحروف، أو أن أصوات اللفظتين متقاربة في الصفات والمخارج.

**الفكرة الرابعة:** ضمناها ابن جنبي في باب أسماه «إمساس الألفاظ أشباه المعاني»<sup>(5)</sup> وهي أن يوضع اللفظ على صورة مناسبة للمعنى، معتقداً أن الجرس الصوتي يوجّه المعنى ويساعد على أن يدلّ اللفظ دلالة دقيقة على المقصود منه، وهذا الأمر له طرق متعددة منها:

- ما يتعلق بدلالة بناء الكلمة: مثلاً على ذلك بقول الخليل: إن العرب توهموا في صوت الجندب استطالة ومدّاً فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: صرصر<sup>(6)</sup>.

- ما يتعلق بدلالة صيغة الكلمة: ويذكر ابن جنبي قولاً لسيبويه حول المصادر التي جاءت على وزن «فعالان»، وأنها تأتي للدلالة على الاضطراب والحركة، كالغليان والغثيان<sup>(7)</sup>.

- ما يتعلق بدلالة الصوت نفسه على الحدث، فيقول: «إنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها»<sup>(8)</sup>. ويورد على ذلك أمثلة منها الخاء في «خضم» والقاف في «قضم» فالخضم للأكل الرطب كالبطيخ، والقضم للصلب اليابس كالشعير.

هذه بعض الصور التي يذكرها ابن جنبي في هذا الباب، مؤكداً أن هذه الفكرة عامة في اللغة، مكرّساً سلطة الألفاظ والأصوات على المعاني، قائلاً إن عدم قدرة الدارس على تطبيق هذه الفكرة على بعض الألفاظ راجع إلى أحد أمرين:

1. عدم تدقيق النظر، وقصور الفكر عن إدراكه.  
2. انطماس آثار هذا الأمر مع طول الأيام بحيث أصبحت خفية، ولم يتمكن الدارس من إدراكها<sup>(9)</sup>.

إذن يؤكد ابن جنبي أن هذه الفكرة تشكل قاعدة عامة، مفادها أن للأصوات في ذاتها دلالة، وأنها

(5) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 153.

(6) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 152.

(7) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 152.

(8) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 157.

(9) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 164.

(1) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 124.

(2) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 126.

(3) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 138.

(4) ابن جنبي، الخصائص، 2/ 145.

الألفاظ ومعانيها هي علاقة طبيعية قائمة على المحاكاة والتقليد.

غير أن سعد الصويان يرفض هذه الفكرة؛ فهذه الأصوات التي تبدو وكأنها محاكاة لأصوات الطبيعة ليست سوى رموز لغوية غيرها من الكلمات، والدليل على ذلك اختلافها من لغة لأخرى، فعلاقة المعنى بالصوت ليست علاقة سببية ولا شكلية ولا طبيعية، بل علاقة عشوائية اعتبارية، لكنها علاقة ثابتة، فكلمة ملح ليست مالحة، وكلمة سكر ليست حلوة<sup>(4)</sup>.

وقد سأل بعض الغربيين في العصر الحديث عن إمكانية وجود استثناءات من مبدأ اعتبارية العلامة. يقول (ميشال أريفيه): «يسارع (سوسير) إلى التخلص من الأمثلة المضادة الواضحة التي تقدمها صيغ الكلمات التي تحاكي أصوات الطبيعة أو صيغ التعجب، فالصيغ الأولى وعددها أقل بكثير مما نظنه ليست قط عناصر عضوية في أي نظام من الأنظمة اللغوية»<sup>(5)</sup>. وهذا النص يوحي أن (دي سوسير) قد وجد صعوبة في إخضاع مثل هذه الألفاظ لنظريته، فيما يتعلق باعتبارية العلامة اللغوية.

**الفكرة السادسة:** هي من أهم الأفكار التي بثها ابن جني في «خصائصه»؛ إذ إنها تقدم تصوراً قريباً مما أقره الدرس اللساني، وهو اعتبارية العلاقة بين اللفظ والمعنى. يقول محمد وليد حافظ<sup>(6)</sup>: إن ابن جني قد أوضح أن الاعتبارية أحد أسس اختيار الأصول الثلاثية في اللغة العربية، وهي أصول الأغلبية العظمى. ويدلل حافظ على ذلك ببعض النصوص التي وردت في «الخصائص»، وهي نصوص تُظهر أن فكرة الاعتبارية كانت حاضرة في ذهن ابن جني كغيرها من الأفكار التي سبق ذكرها.

يقول ابن جني: «اعلم أن واضع اللغة لما أراد صوغها وترتيب أحوالها هجم بفكره على جميعها، ورأى بعين تصوّره وجوه جملها وتفصيله، وعلم أنه لا بد من رفض ما شنع تأليفه منها، نحو «هع» و«قج».. فنفاه عن نفسه، ولم يمرره بشيء من لفظه، وعلم أن ما طال وأمل بكثرة حروفه

توجه المعنى عند دخولها في بناء الكلمة؛ فعلاقة الصوت بالمعنى علاقة طبيعية<sup>(1)</sup>. ويقول محمد الرديني إن رأي ابن جني هذا ذو فائدة تتمثل في تخمين معاني الكلمات الغامضة عن طريق تقليب مادة الكلمة والنظر في أصولها وجرسها، كما أنه من الممكن الاستئناس به في تحليل النصوص الأدبية، عن طريق دراسة إيماءات اللفظة وأبعادها<sup>(2)</sup>.

لكن الفكرة التي قام عليها هذا الباب من كتاب «الخصائص»، على الرغم من تأييدها من بعض اللغويين المحدثين في الغرب، تتقاطع مع القول باعتبارية العلاقة بين اللفظ والمعنى، وهو ما يتبناه غالبية الغربيين؛ إذ تنادي بحتمية العلاقة بين الصوت أو اللفظ وما يدل عليه، وهي حتمية قائمة على الاقتضاء، فدخول صوت ما في بناء اللفظة يقتضي توجيهها نحو معنى معين، أو اقتراحها منه، وكذلك الأمر في صيغة اللفظ.

**الفكرة الخامسة:** هذه الفكرة في العلاقة بين اللفظ والمعنى نجدها عند حديث ابن جني عن نشأة اللغة، ونشأة اللغة هو الموضوع الذي سنختتم به بحثنا هذا، لكننا سندرسه هنا ضمن العلاقة بين اللفظ والمعنى في فكر ابن جني، الذي يعتقد أن قدرًا من ألفاظ اللغة جاء محاكاة لأصوات الطبيعة. فعلى الرغم من إشارة ابن جني إلى بعض من هذه الألفاظ في الفكرة السابقة، إلا أننا نعتقد أنه شيء مختلف عن سابقه، فالقضية هناك كانت تتعلق بدلالة المبنى في ذاته على المعنى مباشرة، أمّا هنا فالمبنى ليس هو مصدر المعنى، وإنا الطبيعة. يقول ابن جني: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة، كدوي الرياح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحیح الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، وزنيب الطيبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل»<sup>(3)</sup>.

في هذه الفكرة يبدي ابن جني استحسانه للرأي الذي يقول بأن نشأة اللغة جاءت من خلال اكتساب الإنسان لألفاظه عبر محاكاته لأصوات الطبيعة، وإطلاق هذه الأصوات كمسميات على الأشياء التي تصدر عنها، فالعلاقة بين هذه

(4) الصويان، اللغة الإنسانية طبيعتها وخصائصها، ص 95.

(5) أريفيه، البحث عن فردينان دو سوسير، ص 83.

(6) حافظ، قراءة في فكر ابن جني من خلال «الخصائص»

على ضوء علم اللغة الحديث، ص ص 74 - 76.

(1) حماد، العلاقة بين الصوت والمعنى عند ابن جني، ص 304.

(2) الرديني، فصول في علم اللغة العام، ص 240-241.

(3) ابن جني، الخصائص، 1/ 46-47.

هذه الإشارات المباشرة وغيرها في كتاب «الخصائص» إلى اعتبارية العلاقة بين اللفظ ومعناه تدلّ على أن الرجل لم يكن غافلاً عنها، ومن ثم فإن الحكم على فهمه اعتماداً على جانب دون آخر سلوك تجانبه الموضوعية والعلمية. ولذلك نعيد التأكيد أن ابن جنّي حاول التأسيس لنظرية في المعنى، قوامها أن ألفاظ اللغة منها ما تربطه بمعناه علاقة طبيعية اعتماداً على محاكاة أصوات الطبيعة، أو لأن طبيعة الصوت نفسها توحى بالمعنى، ومنها ما هو اعتباطي لو استبدلنا به غيره للدلالة على المعنى نفسه لما ضرّ ذلك. ولا ينكر منكر أن في أقوال المحدثين ما يؤيد المذهبين اللذين ذهب إليهما ابن جنّي.

### نشأة اللغة

وقفنا الأخيرة مع نظرة ابن جنّي للغة ستكون حول تصوّره لنشأتها، إذ إنّه يعقد في كتابه «الخصائص» باباً يسميه «باب القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح؟»<sup>(4)</sup>، وهذا العنوان يوحي بأن ابن جنّي سيناقش هذه القضية في إطار احتمالين، غير أن القارئ لهذا الباب سرعان ما يكتشف أنّها ثلاثة احتمالات، ثالثها المحاكاة أو التقليد.

يبدأ هذا الفصل قائلاً «هذا موضع محجوج إلى فضل تأمل» مرسلاً للقارئ رسالة واضحة مفادها أنّه لم يحسم أمره في هذا الخلاف، ولم يصل احتمال من هذه الاحتمالات عنده إلى درجة اليقين، فتراه يرجّح الاصطلاح مرة قائلاً: «وأكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف».

ثم يتناول الدليل الذي ساقه القائلون بأنّ اللغة وحي وتوقيف، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: 31)، مؤكداً أنّ هذا الدليل لا يتناول موضع الخلاف؛ ذلك أنّ «علم» في الآية قد تكون بمعنى «أقدر آدم على وضعها»، وبعد ذلك يحكم بسقوط الاستدلال بهذا الدليل. ورغم تمرّد ابن جنّي على فكرة كون اللغة إلهاماً، إلا أنّ هذا لا ينفي أنّ كثيراً من أئمة العربية الباقين يكادون يطبقون على أنّ اللغة إلهام وتوقيف، ولا يكادون يختلفون في تصوّرهم نشأة

لا يمكن فيه من التصريف ما أمكن في أعدل الأصول وأخفها وهو الثلاثي.. فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض، وكانت الأصول وموارد الكلم معرضة لهم، وعارضة أنفسهم على تحيّرهم، جرت لذلك عندهم مجرى مالٍ ملقى بين يدي صاحبه، وقد أجمع إنفاق بعضه دون بعض، فميّز رديئه وزائفه، فنفاه ألبته، كما نفوا عنهم تركيب ما قبح تأليفه، ثم ضرب بيده إلى ما أطف له من عرض جيده، فتناول له للحاجة إليه، وترك البعض؛ لأنّه لم يرد استيعاب جميع ما بين يديه منه؛ لما قدّمناه؛ وهو يرى أنّه لو أخذ ما ترك، مكان أخذ ما أخذ، لأغنى عن صاحبه، ولأدّى في الحاجة إليه تأديته، ألا ترى أنّهم لو استعملوا «لجع» مكان «نجع» لقام مقامه وأغنى مغناه»<sup>(1)</sup>.

يعلق حافظ على هذا النصّ بأنّه حدد مراحل وضع ألفاظ اللغة برفض ما شنع؛ كتتابع الحروف ذات المخرج الواحد، والتقليل من الأصول الطويلة كالرباعي والخماسي، والانتقاء من الأصول الثلاثية. والمقياس الوحيد في كل ذلك هو مقياس الاعتبارية فقط<sup>(2)</sup>.

ثم يذكر في الموضع نفسه من مظاهر الاعتبارية عند ابن جنّي كلامه عن ظاهرة العدل لبعض الكلمات دون غيرها، إذ يقول: «فقد نجد في اللغة أشياء كثيرة غير محصاة، ولا محصّلة، ولا نعرف لها سبباً، ولا نجد إلى الإحاطة بعلمها مذهباً، فمن ذلك إهمال ما أهمل وليس في القياس ما يدعو إلى إهماله، ومنه أنهم عدلوا «فعلًا» عن «فاعل» في أحرف محفوظة، وهي «ثعل» و«زحل» و«عمر».. وما يقل تعداده، ولم يعدلوا في نحو «مالك» و«حاتم» و«خالد» وغير ذلك، ولسنا نعرف سبباً أوجب هذا العدل في هذه الأسماء التي أريناها دون غيرها»<sup>(3)</sup>. وفي هذا النصّ يظهر إدراك ابن جنّي لاعتبارية اللغة في تصريف ألفاظها ومن ذلك قوله «لسنا نعرف سبباً».

ويسوق حافظ بعد ذلك مظاهر أخرى لإدراك ابن جنّي لاعتبارية اللغة، واعتماده لها كأساس من أسس اللغة في اختيار ألفاظها وصيغها.

(1) ابن جنّي، الخصائص، 1/ 64-65.

(2) حافظ، قراءة في فكر ابن جنّي من خلال «الخصائص» على ضوء علم اللغة الحديث، ص 75.

(3) ابن جنّي، الخصائص، 1/ 52.

(4) ابن جنّي، الخصائص، 1/ 40.

اللغة الإنسانية<sup>(1)</sup>.

أما في الغرب، فيقول (جان بيرو): «إن الفرضية الدينية المتعلقة بوحى اللغة المستمدة من سفر التكوين دافع عنها حتى بداية القرن التاسع عشر رجال أمثال (دي بونالد) و(دي ماتر)<sup>(2)</sup>».

ينتقل ابن جني إلى الاحتمال الثاني، وهو مذهب القائلين بأن أصل اللغة لا بد فيه من المواضع، ثم يروي قصة الحكماء الذين يجتمعون ويضعون للأشياء أسماءها، وينشرونها بين الناس، مناقشاً فكرة عملهم وألبيتها بشيء من التفصيل. ثم يختتم الاحتمالات بقوله: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة، كدوي الرياح، وحنين الرعد، وخريير الماء، وشحیح الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، وزنب الطيبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل<sup>(3)</sup>». وهو بذلك يضع احتمالاً ثالثاً يرى أن اللغة نشأت من خلال الطبيعة وتقليد أصواتها، ويحكم على هذا الاحتمال بأنه وجه صالح ومذهب متقبل.

والملاحظ على عرض ابن جني لهذه الاحتمالات أنه بدأها بالإلهام، ثم حاول إضعاف هذا الرأي وردّه بإسقاط الدليل الذي ساقه عليه أصحابه، ثم أسهب في الحديث عن المواضع بصورة تدل على تحمسه لهذا الاحتمال. ويختتم باحتمال التقليد الذي يؤيده ويراه صالحاً مقبولاً لتفسير نشأة اللغة. ولكنّه وبعد كل ما تقدم نراه يرجع إلى الخلف، كاشفاً عن حيرته قائلاً: «واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التغير والبحث عن هذا الموضوع، فأجد الدواعي والخوارج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغول علي فكري<sup>(4)</sup>». فهو دائم التفكير في هذا الأمر، محاولاً الهرب من هذا القلق إلى التسليم بالاحتمال الوحيد الذي كان قد رفضه، وهو الإلهام، اتباعاً لغيره.

ويبدو أن ابن جني كان مشتتاً بين قيدين ينتميان إلى فترتين زمنيّتين مختلفتين؛ فالرأي الغالب عند علماء عصره في هذه القضية هو أن اللغة تواضع واصطلاح، نجد ذلك جلياً في قوله «غير

أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف». فليس في هذه العبارة ما يوحي بأنها تعود إلى فترة زمنية سابقة. على العكس بل هي توحى بأنه يتكلم عن عصره. فالرأي الذي كان سائداً عند الجيل الأقدم من جيل ابن جني ومنهم أستاذه أبو علي الفارسي أن اللغة إلهام وتوقيف. يقول: «فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حدوته على أمثلتهم، فعرفت بتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به وفُرق لهم عنه، وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز».

يتضح من النص السابق أن ابن جني لا يتكلم عما كان يدور في عصره، فاستخدم الأفعال الماضية «نبّه» «رحمهم الله».. إلخ، ثم قال «ما حدوته» والحدو تقليد لطريقة سابقة. إذن سبب تردد ابن جني بين الفكرتين عائد إلى أن كل واحدة منهما تنتمي إلى زمن مختلف، ففكرة التواضع فكرة حديثة في زمنه قياساً بفكرة الإلهام.

أما المحاكاة فنظنتها أحدث الاحتمالات الثلاثة؛ إذ ابن جني يمرّ عليها مسرعاً، قائلاً «ذهب بعضهم» رغم إعجابها بها وقبوله لمبدئها، وحدائتها سبب في أنها أقل قوة من سابقتها. وقد عرف الغربيون هذه النظرية فيما بعد، يقول (جان بيرو) بعد حديثه عن نظرية الإلهام: «وظهر فيما بعد عدة نظريات، منها نظرية المحاكاة، أو نظرية الباو-واو، وقد سميت هكذا لأنها تفترض أن الكلمات البدائية كانت لها قيمة محاكية، فاستحضار نباح الكلب مثلاً يكون لتعيين الكلب، أو عملية النباح<sup>(5)</sup>».

وينكشف لنا أيضاً من النقول السابقة، أن أيّاً من الاحتمالات الثلاثة ليست من إبداع ابن جني، بل هي أفكار كانت تسود الوسط العلمي عموماً إذ ذاك. فالتوقيف يراه «أكثر أهل النظر»، والإلهام «نبه عليه أصحابنا» والمحاكاة «ذهب بعضهم» إليها.

وحيرة ابن جني وتردده بين هذه الاحتمالات الثلاثة أشار إليه غير واحد من لغويي العرب المحدثين، نذكر منهم على سبيل المثال: عبده الراجحي، الذي وصف ابن جني بالخيران بين

(1) الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص 34.

(2) بيرو، اللسانيات، ص 96.

(3) ابن جني، الخصائص، 1/ 46-47.

(4) ابن جني، الخصائص، 1/ 47.

(5) بيرو، اللسانيات، ص 97.

النظريات<sup>(1)</sup>، بينما العامل الديني والخوف من التكفير هو الباعث وراء ترده في رأي محمد قدوح<sup>(2)</sup>.

وهنا بعض التفصيل لرأي المحدثين في هذه الاحتمالات على النحو التالي:

#### أولاً: نظرية الإلهام والتوقيف

هذه النظرية هي أقدم النظريات. وكما أسلفنا فقد ظلت سائدة عند الغرب حتى أواخر القرن السابع عشر، لكن نصيبها من البحث في العصر الحديث أقل من أختيها، فقد رفضها أكثر المحدثين. يقول جرجي زيدان: واللغة ليست توقيفية لأنها لو كانت كذلك لاقتضى الأمر أن تكون ثابتة البناء، ولاقتضى بقاءها على ما هي عليه، وهي ليست كذلك، لأنها عرضة للتغيير، فما تفاهم به أبائنا مختلف عما نتفاهم به الآن<sup>(3)</sup>.

#### ثانياً: الوضع والاصطلاح

ذكر هذه النظرية (روسو) تفسيراً لنشأة اللغة؛ إذ ذهب إلى أن الناس قد اجتمعوا في القديم لوضع لغة والاتفاق عليها<sup>(4)</sup>.

أمّا رمضان عبدالتواب، فيقول إنه ليس لهذا المذهب أي سند عقلي أو تاريخي، بل إن ما يقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية؛ فعهدنا هذه النظم أتمها لا ترتجل ارتجالاً، ولا تخلق بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها. هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون، فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن؟ وهكذا نرى أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل<sup>(5)</sup>.

وقد أيده في ذلك علي عبدالواحد وافي، مضيفاً أننا لسنا هنا بصدد نظرية جديدة بالمناقشة، بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم، يحمل في طيه آية بطلانه، وهو مذهب ساذج ينحرف عن جادة

الصواب ونطاق المعقول<sup>(6)</sup>. والذي نراه أنه على الرغم من منطقيته ما يطرحه عبدالتواب ووافي إلا أن رفض هذه النظرية بهذه الصورة، ووصفها بالساذجة أمر مبالغ فيه، فما طرحته من أسلوب لنشأة اللغة لا يزال سائداً في عملية إطلاق الأسماء على المسميات الجديدة، وتطور اللغات واتساعها، لكن المشكلة تكمن في صوغ الآلية التي ربما اعتمدت عليها النشأة. وقد التفت محمد قدوح إلى هذا الأمر فاعتقد أن ابن جنبي يقر إقراراً واضحاً بأن اللغة وضع واصطلاح، إلا أنه لم يتنبه إلى عملية التطور في اللغة، بل جعلها كاملة، ولذلك احتار وتردد، فلو ربط رؤيته بعملية التطور وأسند الجانب الإنساني (الاجتماعي) إلى الجانب الطبيعي لكان بالفعل قد اهتدى إلى ما كان علماء القرن العشرين يبحثونه في كتبهم<sup>(7)</sup>.

#### ثالثاً: المحاكاة

يرى علي عبدالواحد وافي أن نظرية تقليد ومحاكاة أصوات الطبيعة هي أدنى نظريات نشأة اللغة إلى الصحة، وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية<sup>(8)</sup>.

ويقول جرجي زيدان إن الألفاظ المانعة الدالة على معنى في نفسها يرد معظمها إلى أصول ثنائية تحاكي أصوات طبيعية، وإن الألفاظ المطلقة قابلة للرد بالاستقراء إلى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ، وإن ما يستعمل للدلالة المعنوية من الألفاظ، وُضع أصلاً للدلالة الحسية ثم حمل على المجاز لتشابهه في الصورة الذهنية. أرجح كل الترجيح أن لغتنا مأخوذة عن محاكاة الأصوات الخارجية، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التي ينطق بها الإنسان غريزياً، ومن هذه الأصوات نشأت ونمت حتى بلغت ما هي عليه الآن<sup>(9)</sup>.

وهو يقصد بالأصوات الخارجية أصوات الطبيعة التي ذكرها ابن جنبي، فنظرية المحاكاة عند ابن جنبي هي جزء من نظرية الأصوات الطبيعية (البيولوجية) عند المحدثين، حيث يجعل

(1) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 84.

(2) قدوح، أبحاث في اللسانيات وعلم اللغة، ص ص 59-60.

(3) زيدان، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، ص ص 129-130.

(4) الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 86.

(5) عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص 112.

(6) وافي، علم اللغة، ص 99.

(7) قدوح، أبحاث في اللسانيات وعلم اللغة، ص 62.

(8) وافي، علم اللغة، ص 105.

(9) زيدان، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، ص 129.

### النتائج

أولاً: أن ما أورده ابن جني من آراء حول اللغة بمعناها الإنساني يعكس تصوراً وفهماً قريباً جداً مما قدمه اللسانيون المحدثون على الرغم من تقدم زمنه.

ثانياً: ما قدمه ابن جني دليل على تطور العقلية العلمية العربية في ذلك الزمان، ويرسخ القول بأن تراث اللغويين العرب أهمل من قبل من أرخوا للدرس اللغوي الإنساني.

ثالثاً: جاء تعريف ابن جني للغة موفقاً؛ فقد أحاط بغالبية جوانبها، كما أنه جاء متفقاً مع تعريف المحدثين لها إلى حد بعيد.

رابعاً: الأفكار التي قدمها ابن جني حول علاقة اللفظ بالمعنى متعددة، قد تشكل نظرية متكاملة لوجعت أشتاتها ونسقت تنسيقاً مناسباً.

خامساً: لم تكن واحدة من نظريات نشأة اللغة التي ناقشها ابن جني من إبداعه أو اختراعه. كما أن حيرته في هذه النظريات يرجع إلى عامل زمني.

### شكر وتقدير

يتقدم الباحثان بالشكر إلى عمادة البحث العلمي في جامعة الملك فيصل لتفضلها بدعم هذا البحث ضمن مشروع يحمل الرقم (9099).

### المراجع

أرفيه، ميشال. ترجمة: البقاعي، محمد خير. مراجعة: سراج، ناصر. 2009م. البحث عن فردينان دو سوسير. الطبعة الأولى، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان.

استيتية، سمير شريف. 2005م. اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج. الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن.

إفيتش، ميلكا. ترجمة: مصلوح، سعد عبدالعزيز، وفايز، وفاء كامل. 2000م. اتجاهات البحث اللساني. الطبعة الثانية، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر.

بارتشت، بريجيت. ترجمة: بحيري، سعيد حسن. 2004م. مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي. الطبعة الأولى، المختار للنشر، القاهرة، مصر.

المحدثون في هذه النظرية إلى جانب تقليد أصوات الطبيعة، ما يسمى بالتعبير الطبيعي عند الإنسان عن الانفعالات، وهو أمر داخلي خاص بالإنسان، في حين أن الأول خارجي.

ومنهم من جعلها نظريتين مختلفتين: الأولى تنطلق من الطبيعة، والثانية تنطلق من تطور الإنسان ككائن بيولوجي، وهذه مختلفة عما جاء به ابن جني<sup>(1)</sup>.

وقد رفض رمضان عبدالتواب هذه النظرية، مؤكداً أنها لو كانت صحيحة للاحظنا اشتراكاً بين اللغات في الكلمات التي تحاكي الطبيعة، مثل الشق والدق والقطع والصهيل والعياء، قائلاً: إنني سمعت الديك العربي في بلاد العرب، والديك الألماني في بلاد الألمان يصيحان بطريقة واحدة، دون أدنى فرق، غير أننا نحاكي صوت الديك فنقول (كوكوكو) ويقول الألمان (كيكيكي)<sup>(2)</sup>.

والمأمل في التشابه بين الكلمتين من حيث اشتراكهما في صوت «الكاف» والجرس اللفظي، يجد أنه أوضح من أن يُنكر، بل إنه يصلح لأن يكون دليلاً على صحة ما استعمل لإبطاله.

وأخيراً نقول إن الرأي الأكثر قوة في قضية نشأة اللغة، هو أن البحث فيها أمر لا جدوى منه، ويجب التوقف عنه. ذكر هذا ماريو باي قائلاً: لا أحد يعرف متى وأين أو على أي صورة ابتداء الكلام الإنساني، على الرغم من وجود افتراضات كثيرة في الموضوع، بعض هذه الافتراضات مشوبة بالخيال، إن لم تكن محض خيال<sup>(3)</sup>.

وقد أكد (روي) الفكرة نفسها، من أنه من المتعذر الإجابة عن هذه الأسئلة بغير قولنا: إن ابتكار اللغة قد تم في وقت ما يقع بين عدة ملايين وبضع آلاف من السنين في مكان ما على الأرض، والقول بأكثر من ذلك ضرب من التخمين<sup>(4)</sup>.

وربما يكون عدم استقرار ابن جني على رأي واحد في نشأة اللغة مؤشراً على إدراكه بأن هذه المسألة لا طائل تحتها، والله تعالى أعلم.

(1) قدوح، أبحاث في اللسانيات وعلم اللغة، ص 63.

(2) عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص 113.

(3) باي، أسس علم اللغة، ص 38.

(4) هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ص 108.

الراجحي، عبده. د.ت. فقه اللغة في الكتب العربية. بدون رقم الطبعة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

الرديني، محمد علي. 2002م. فصول في علم اللغة العام. الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

روبنز، ر.ه. ترجمة: عوض، أحمد. 1997م. موجز تاريخ علم اللغة في الغرب. بدون رقم الطبعة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت.

زيدان، جرجي. د.ت. الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية. بدون رقم الطبعة، دار الهلال، بدون بلد النشر.

سامسون، جفري. ترجمة: كبة، محمد زياد. 1417هـ. مدارس اللسانيات التسابق والتطور. بدون رقم الطبعة، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الشايب، فوزي حسن. 1999م. محاضرات في اللسانيات. الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، الأردن.

الصالح، صبحي. 1997م. دراسات في فقه اللغة. الطبعة الثالثة عشرة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

الصويان، سعد بن عبدالله. 1413هـ/ 1993م. اللغة الإنسانية طبيعتها وخصائصها. مجلة العصور، المجلد الثامن، الجزء الأول، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، ص ص 73-98.

عبدالتواب، رمضان. 1997م. المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي. الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

علي، محمد يونس. 2004م. مدخل إلى اللسانيات. الطبعة الأولى، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان.

غلفان، مصطفى. د.ت. في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها. بدون رقم الطبعة، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان.

فندريس، ج. تعريب: الدواخلي، عبد الحميد، والقصاص، محمد. د.ت. اللغة. بدون رقم الطبعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر.

قدوح، محمد عبدالرزي. د.ت. أبحاث في اللسانيات وعلم اللغة. بدون رقم الطبعة، دار المأمون، بيروت، لبنان.

باي، ماريو. ترجمة: عمر، أحمد مختار. 1983م. أسس علم اللغة. بدون رقم الطبعة، عالم الكتب، القاهرة، مصر.

بوهاس، جورج، وجيوم، ألفرد، وكولوغلي، د.إ. ترجمة: عبدالعزيز، محمد حسن، وشاهين، كمال. 2008م. التراث اللغوي العربي. الطبعة الأولى، دار السلام، القاهرة، مصر.

بيرو، جان. ترجمة: مسعودي، الحواس، وابن عروس، مفتاح. 2001م. اللسانيات. بدون رقم الطبعة، سلسلة العلوم والمعرفة، دار الآفاق، بيروت، لبنان.

تشومسكي، نعوم. ترجمة: حسن، عدنان. 2009م. آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

حافظ، محمد وليد. 1986م. قراءة في فكر ابن جني من خلال «الخصائص» على ضوء علم اللغة الحديث. مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، العدد رقم (25-26)، أكتوبر، ص ص 72-85.

حجازي، محمود فهمي. د.ت. مدخل إلى علم اللغة. بدون رقم الطبعة، دار قباء، القاهرة، مصر.

حسان، تمام. 1990م. مناهج البحث في اللغة. بدون رقم الطبعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر.

حسنين، صلاح. 2007م. علم اللغة الوصفي التاريخي. بدون رقم الطبعة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

حماد، أحمد عبدالرحمن. 1988م/ 1408هـ. العلاقة بين الصوت والمعنى عند ابن جني. مجلة كلية الآداب، جامعة الإمارات، العدد الرابع، ص ص 298-313.

داود، محمد محمد. 2001م. العربية وعلم اللغة الحديث. بدون رقم الطبعة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

دي سوسير، فريدينان. ترجمة: الفرماذي، صالح، والشاوش، محمد، وعجينة، محمد. 1985م. دروس في الألسنية العامة. بدون رقم الطبعة، الدار العربية للكتاب، بدون بلد النشر.

الراجحي، شرف الدين علي. 2002م. في علم اللغة عند العرب ورأي علم اللغة الحديث. بدون رقم الطبعة، دار المعرفة الجامعية، بدون بلد النشر.

- كلاس، جورج. 1984م. الألسنية لغة الطفل العربي. الطبعة الثامنة، منشورات الجامعة، بيروت، لبنان.
- لويس، م.م. ترجمة: حسان، تمام، وأنيس، إبراهيم. 1959م. اللغة في المجتمع. بدون رقم الطبعة، دار إحياء الكتب العربية، بدون بلد النشر.
- ليونز، جونز. ترجمة: التوني، مصطفى. 1987م. اللغة وعلم اللغة. الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر.
- الماحي، عبدالنور محمد. 2009م. مدخل إلى علم اللغة العام. الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- موان، جورج. ترجمة: القاسم، بدر الدين. 1972م. تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين. بدون رقم الطبعة، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، سوريا.
- نهر، هادي. 1998م. اللسانيات الاجتماعية عند العرب. الطبعة الأولى، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن.
- هجمان، روي، سي. ترجمة: السيد، داود حلمي أحمد. 1989م. اللغة والحياة والطبيعة البشرية. بدون رقم الطبعة، جامعة الكويت، الكويت.
- هدسون، د. ترجمة: عياد، محمود. 1990م. علم اللغة الاجتماعي. الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة، مصر.
- هلبش، جرهارد. ترجمة: بحيري، سعيد حسن. 2003م. تاريخ علم اللغة الحديث. بدون رقم الطبعة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر.
- وافي، علي عبدالواحد. 2004م. علم اللغة. الطبعة التاسعة، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
- ياكسون، رومان. ترجمة: صالح، علي، وناظم، حسن. 2002م. الاتجاهات الأساسية في علم اللغة. الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

---

## Ibn Jennys' Language Perspective in Light of Linguistic

Sameeh Ahmad Miqdadi and Mohammed Mahmoud Almegbel

Department of Arabic Language, College of Arts, King Faisal University  
Al-Ahsa, Saudi Arabia

### ABSTRACT

Ibn Jenny is one of the most prominent advanced linguists. His prominence was derived from a number of publications in which he included some significant linguistic views. This research attempts to study these views, draw a clear perception about the nature of his understanding of language on humanitarian bases, in addition to discussing his perception according to his linguistic views.

The main finding was that Ibn Jenny's perception of language humanitarian bases, despite being an advance linguist, reflected similarity with modern linguists' perception. It also revealed that his ideas about the relationship between pronunciation and meaning could form a complete theory if it is studied as a whole.

**Key Words:** Chomsky, De Saussure, Linguistics, Modern language science